شَجَرَةُ
الأَنبِيَاءِ
- ١ -

آدَمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ

أَبُو البَشَرِيَّةِ

منصور الرفاعى عبيد   د/ إسماعيل عبد الفتاح   رزق السيد هيبة

رسم صفوت قاسم

ملتزم الطبع والنشر

دار الفكر العربى

٩٤ شارع عباس العقاد - مدينة نصر - القاهرة

ت : ٢٧٥٢٩٨٤، ٢٧٥٢٩٨٤، فاكس: ٢٧٥٢٧٣٥

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، ورضى الله تبارك وتعالى عن التابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد

فهذه نماذج بشرية اختارها الله واصطفاها من بين ملايين الملايين من البشر، ليكونوا أنبياء الله ورسله لهداية البشرية إلى الطريق الحق، طريق التوحيد، الذى هو صراط الله المستقيم، الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

هذه النماذج البشرية التى نقدمها بكل حب وإعزاز، لها فى التاريخ ذكر بارز، وبين طيات الزمن خبر طيب.

نقدم هذه النماذج ليعيش معهم النشء المسلم، ويقتدى بهم، ويسير فى نور رسالتهم، لأنهم أنبياء الله ورسله الذين ذكرهم القرآن الكريم حيث قال عز وجل: ﴿ **أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ** ﴾ [الأنعام: ٩٠].

والأنبياء الذين ذكر الله أسماءهم صراحة فى القرآن الكريم خمسة وعشرون نبيا ورسولا، ذكر أسماء ثمانية عشر منهم فى سورة الأنعام فقال تعالى: ﴿ **وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي**

الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلاًّ فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ﴾

[الأنعام: ٨٣ - ٨٦].

ثُمَّ جَاءَ شَاعِرٌ عَرَبِيٌّ مُسْلِمٌ ليعرِّفَنَا بِهِمْ جَمِيعًا فِي قَوْلِهِ:

فِي تلكَ حُجَّتُنَا مِنهُمْ ثمانيةٌ ... من بعد عشر ويبقى سبعة وَهُمُ

إِدريسُ هُودٌ شُعَيْبٌ ثمَّ صالحُ ذُوالْـ ... كِفلِ آدَمُ بالمخْتَار قَدْ خُتِمُوا

وقدْ يكونُ هُناكَ أنبياءُ آخرُونَ لا نعْلَمُهُمْ ولكنَّ اللهَ يَعلمُهُمْ، وَقَدْ أَشارَ إليهِمْ سُبحَانَهُ وتعَالَى فِي قَوْله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر: ٧٨].

وَها نحنُ أُولاءِ نَضَعُ بَيْنَ يَدي القَارِئ سيرَةَ هَؤلاَءِ الأنبيَاء، نَبدَؤُهَا بسيرَة آدَمَ عَلَيْه السَّلامُ الذى هُوَ أَبُو البَشَرية، وأَولُ خَلْقِ اللهِ عَلَى الإطْلاقِ، لِتكُونَ نبرَاسًا وتَذكَرةً، فَإِنَّ الذِّكْرَى تنفعُ المؤْمنينَ.

قصة خلق الكون

قصَّةُ خَلْقِ الكَوْنِ إحْدَى القصَصِ الَّتى تُبيِّنُ لَنَا قُدرةَ الله عزَّ وجلَّ، بَديعِ السَّموات والأرْضِ، الَّذى إذَا أَرادَ شيْئاً فإنَّما يقُولُ لَهُ كُنْ فيَكُونُ.

وقَدْ يقولُ قَـائلٌ: إن قصَّةَ خَلْقِ الكَوْنِ هىَ غَيْبٌ منَ الـغُيوبِ الَّتى لاَ يعْلَمُهَا إلاَّ اللهُ سُبْـحَانَهُ وتَعَالَى، وأَنهُ لاَ يُمْكِنُ لإنسَانَ أَنْ يَصِفَ ذَلكَ عَلَى الحقيقَةِ بدليلِ قَولِ الله تَعالى: ﴿**مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ**﴾ [الكهف: ٥١]. ونَحنُ نَقُـولُ: صَحيحٌ أَنَّ اللهَ لَمْ يُشْـهِد النَّاسَ خَلْقَ السَّـموَاتِ وَالأَرْضِ، ولَكنَّهُ أَشَـارَ إلَى وَصْفِ ذَلكَ الخلْقِ فِى بَعْضِ آياته منْ كِـتَابِهِ الكَريمِ، وَجَـاءَ المفسِّـرُونَ ليبـيِّنُوا لَنَا مَعَـانى تلكَ الآياتِ فقَالُوا:

إنَّ هَذا الكَوْنَ الذى نَعـيشُ فـيه منْ أَرْضٍ وَهواء، وسـمَاء ونُجـومٍ وشَمْسٍ وقمَـرٍ، كَانَ لاَشَىْءَ، لماذَا؟ لأنَهُ لمْ يكُنْ هُنَاكَ إلاَّ اللهُ عَزَّ وجَلَّ، نَعمْ لَمْ يكنْ هنَاكَ سوَاهُ: اللهُ الوَاحدُ الأَحَدُ.. الفَرْدُ الصَّمَدُ.

وأَرادَ اللهُ أَنْ يَخْلقَ الكَوْنَ، فَأَوْجَدَ الماءَ، وأَمرَهُ بأَنْ يُخرجَ الدُّخَانَ، فخَرجَ الدُّخَـانُ منَ الماء، وارتفَعَ الدُّخَانُ إلَى أعْلَى فصَارَ سـمَاءً، ثُمَّ أَمرَ اللهُ بتكوُّن قطْعة حَجريَّة منَ الماء، فَتكوَّنَتْ ثُمَّ كَانتْ بأمْرِ الله أَرْضًا.

وبَذَلكَ خَلَقَ اللهُ السَّمـوَاتِ السَّبْعَ وَالأرْضَ وَالكَوْنَ كُلَّهُ، فِى سـتَّةِ أَيَّامٍ، أَىْ فِى ستِّ مَراحلَ يَعْلَمُ اللهُ مقْدَارَهَا، فَأبدعَ خَلْقهُنَّ جَميعًا، خَلَقَ السَّموَات بدُون أَعمدة؛ لأنَّ قُدرتَهُ لاَ حُدودَ لَهَا، فهُوَ وَحْدَهُ الخَالقُ القَادرُ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ.

وبَعْدَ إتْمَامِ خَـلْقِ السَّموَاتِ وَالأَرْضِ، خَاطَبهُـنَّ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ وقَالَ لَهُمَا: أَنَا اللهُ الخَـالقُ القَوىُّ، رَفِيعُ الدَّرجَاتِ ذُو العَـرْشِ فَهلْ تَستجـيبان لأمْرِى، أَمْ تَعصيَانِى؟

فقَالت الأرضُ والسَّماءُ فى صَوْت واحد: أتينَا طائعينَ.

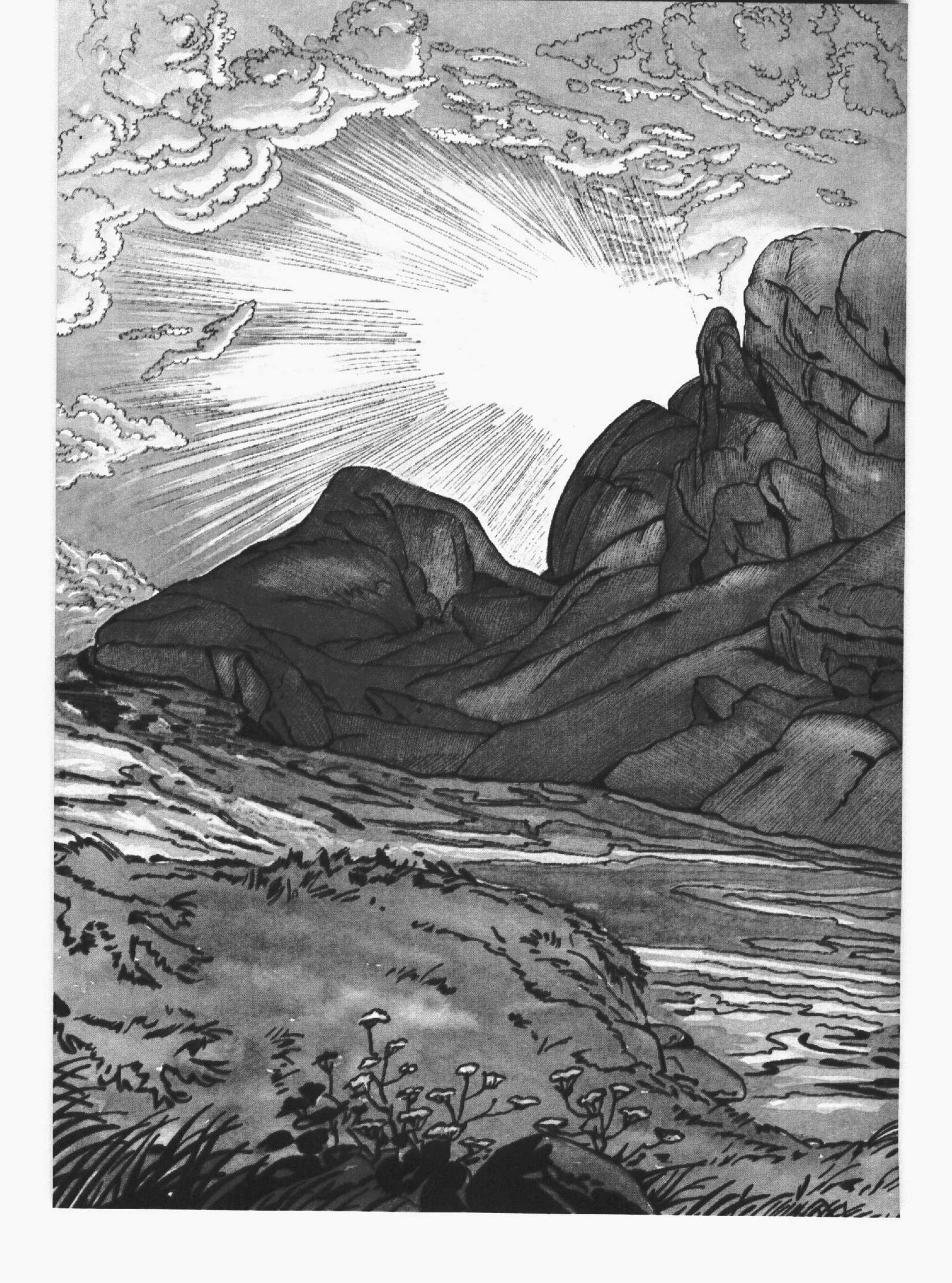
ثُمَّ خلَق اللهُ الشَّمْسَ والقَمَرَ والنُّجومَ فى السَّماء، ثُمَّ أوجَدَ الملائكةَ حيثُ اقْتضَتْ مشيئتُه أَنْ يَخْلُقَهُمْ من نُور. وجَعَلَ مَسْكَنَهُمُ السَّمَاءَ. والملائكَةُ خَلْقٌ من خَلْق الله، يتميَّزُونَ بأنهُمْ لا يأكلُونَ ولاَيشْربُونَ، ولاَ ينامُونَ، وإنَما هُمْ مَشغُولُونَ بذكره عزَّ وجَلَّ وشكره وطَاعته، وتنفيذ أوامره فَهُمْ ﴿ **لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ** ﴾ [التحريم: ٦].

فَمنَ الملائكة مَنْ يَسُوقُ الرِّياحَ إلَى حَيْثُ يَأمرُهُ اللهُ سُبحَانَهُ وتعَالَى، ومنهُمْ مَنْ يُحرِّكُ الجبَالَ لتنفيذ أوامر الله. وَمنهُم مَنْ ينزلُ بالوَحْى علَى الأَنبيَاء لهدَاية البَشَر، وَمنْهُمْ مَنْ يَقبضُ الأَروَاحَ امْتثَالاً لأوَامر الله، وَهكذَا قَضَى اللهُ بأنْ يكُونَ لكُلِّ مَلَك مُهمَّة يُؤدِّيهَا فى ذَلكَ الكَوْن الفَسيح. والملائكةُ كُلُّهمْ فى الوَقت نَفْسه، مُسْتَغْرقونَ فى حَمد الله وَعبَادته لَيْلاً ونَهَارًا ﴿ **يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ** ﴾ [الأنبياء: ٢٠].

العظمة فى خلق آدم

كَانَت الأَرضُ قطعَةً صَغيرَةً تَسْبحُ كَسفينَة عَلَى سَطْح المحيط، وَاقتضَتْ حَكمَةُ الله أَنْ يَخْلُقَ مَنْ يَعْمُرُهَا، فكَانَ آدَمُ عَليه السَّلامُ أَوَّلَ بشَر يَخْلقُهُ اللهُ لهذَه المَهمَّة. فجَمعَ اللهُ الملائكَةَ باعتبارهمْ خَلقَهُ المكرَّمينَ، الَّذينَ يخْلصُونَ لَهُ العبَادَةَ ويُسبِّحُونَ اللَّيلَ والنهَارَ لاَ يفتُرُونَ، وَقالَ لَهُمْ: ﴿ **إِنِّى جَاعِلٌ فِى الأَرْضِ خَلِيفَةً** ﴾ [البقرة: ٣٠]. أَىْ أنَّنى أَنَا اللهُ الَّذى خَلَقْتُ هَذا الكَوْنَ الواسعَ الرَّحْبَ، وبمشيئَتى سَأخْلُقُ الإنسَانَ الَّذى يسْكُنُ هَذه الأَرضَ ويعمُرُهَا، وأَسْتَخلفُهُ فيهَا بإرادتى ومَشيئَتى.

وتطَلَّعت الملائكَةُ إلَى ذَلكَ الخَبر الذى يُلقيه اللهُ إليْهمْ، وتسَاءَلُوا: ﴿ **قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ** ﴾ [البقرة: ٣٠]. ولَكنَّ الحقَّ القَادرَ، العَليمَ، قَالَ لملائكته ﴿ **إِنِّى أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ** ﴾ [البقرة: ٣٠].



نَعمْ، فاللهُ وَحْـدَهُ يَعلَمُ وَسائرُ خَلْقـه لاَ يَعلَمُونَ إلاَّ مَـا عَلَّمهُمُ اللهُ سُبحَانَهُ وتعَالَى، وَهُوَ سُبـحَانَهُ يُرِيدُ تكرِيمَ بَنى الإنسَانَ فى شَخْصِ أَبِيهم الأَوَّل آدَمَ عَلَيْه السَّلاَمُ، فقَالَ للملاَئكَة : ﴿ **فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ** ﴾ [الحـجر: ٢٩]. وهَذَا أَمـرٌ منَ الله سبـحَانَهُ وتعَـالَى لملاَئكته أَنْ تَسْجُدَ لآدمَ سُجودَ تكريم، وكَـأنهُ احْتفَالٌ عَظِيمٌ يُقَامُ فى المَلأ الأَعْلَيَ بمناسَبَـة إتمَام تَكوينِ آدمَ الَّذى أَبدعَ اللهُ صُورتَهُ منْ حَـيْثُ الشَّكْلُ والمنظَرُ والجمَالُ، كَمَا وَصَفَهُ جلَّ وعَلاَ فقَالَ: ﴿ **لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ** ﴾ [التين: ٤]. فقَدْ خَلقهُ ربُّهُ عَلَى غَير مثَال سَابق، ثُمَّ نفَخَ فيه من رُوحه، تلكَ النفخَةَ الرُّوحَانيةَ الكَرِيمَةَ، التى جَعلَت الحَيَاةَ تَدبُّ فى جَسد آدم بَعْدَ أَنْ كَانَ مُجرَّدَ تمثَال منَ الطِّين أَوْ منَ الحمأ المسْنون، فَتهيَّأَ الإنسَانُ بلحْمه وَعظَامـه ودمه وأَعْصَابه، وتَحركَ بقُدرة الخَـالقِ المُبْدعِ القَادرِ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ.

﴿ **فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ** ﴾ [الحجر: ٣٠] سُجُودَ تحـية لهَذَا الإنسَـان الذى أَبدَعَـهُ اللهُ، وَنَفخَ فـيه مـنْ روحه، وجَـعلَهُ خَليـفَـةً فى الأَرْضِ، فَسبْحَانَ الخلاَّقِ العَظِيمِ.

اللهُ يُعطِي الإنسانَ العِلمَ

أَرادَ اللهُ سُبحَانَهُ وتعالَى أَنْ يُبيِّنَ للمَلائكَة بالدَّليلِ العَمَليِّ الوَاضح، لماذَا أَمرهُمْ بالسُّجـود لهذَا المخلوق، سُجُودَ تحية وإجْـلاَلَ وإكبَار، فعَلَّمَ آدمَ أَسماءَ الأَشيَـاء مثْلَ الشَّجرِ واللَّيلِ والنهار والشَّمس والقَـمر وبعض الدوابِّ، وأَسمَـاء كُلِّ شَيْء حوْلَهُ، ذَلكَ العلْمَ الَّذى يَصفُهُ اللهُ سبْـحانَهُ وتعَالَى فى قَولْه: ﴿ **وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٣١) قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٣٢) قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ** ﴾ [البقرة: ٣١ - ٣٣].

هُنَا كَـانتْ مُعــجـزَةُ خَلق آدَم، وخَلْق عَـقْلِ آدمَ، وخَلق علْم آدمَ، الَّذى سَيرِثُهُ أَبناؤهُ مِـنْ بعْده لِيُقيمُـوا عَلَيْه عُمْرانَ الأَرْضِ وأَعمَـدَةَ الحيَاة فيهَا.

كَانَتْ مُعجزَةُ الخلْقِ الَّذى أَبدعَ اللهُ صُنْعَهُ، أَنْ نطَقَ آدمُ، وتحدَّثَ عَنِ الأَشيَاء بأسمَائِهَا كَمَا عَلمَهُ اللهُ تعَالَى.

وَهكَذَا تُوضِّحُ لنَا الآيَاتُ أنَّ اللهَ سُبحانَهُ وتعَـالَى توَجَّهَ إلَى مَلائكته بالخطَاب، يُعرِّفهمْ أنهُ يَـعْلَمُ مَا لا يَعْلمُونَ. فهذَا آدمُ أبو البَـشَرِ، سَيكونُ أبناؤهُ عَلَى منوَاله يَعرفُونَ أَسمَاءَ الأَشْـيَاء، ويَعمَلونَ عَلَى تَطوير الحيَاة فِى الأَرْضِ، ويَسْعوْنَ إلَى رُقيِّهَا بالعلْمِ وَالعقْلِ الَّذى خَلَقَهُ فيهِمْ.

ولماذَا خَلَق اللهُ آدمَ بهذه الصُّورة الجـميلة، ولماذَا أَعطَـاهُ اللهُ هذَا العلْمَ؟

لقَدْ كَانَ ذَلكَ لأنَّه سُبْحَانَهُ هُوَ العَالِمُ الَّذى يُحيطُ علمهُ بكُلِّ شَيْء، مَا كَانَ وَمـا سيَكُونُ، فَأرادَ أنْ يُظهِـرَ علمَهُ، فَأعْطَى آدمَ جُزْءًا يَسـيرًا مِنْ ذَلكَ العلمِ، وَورَّثَهُ ذريتَهُ، ليعْرفوُا اللهَ عَزَّ وجَلَّ عَنْ علْمٍ ويقينٍ، يَعرفُونَهُ بالعَقْلَ والفكْرِ، فَـيسبِّـحونَهُ ويَسْجُـدُونَ لَهُ فِى الأَرْضِ، ويَشكُرُونَهُ عَلَى نعْمة الخَلْقِ، ومَا يَتـبعُهَا مِنْ نِعمٍ ظَاهِرَة وبَاطنة. ﴿**وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا**﴾ [إبراهيم: ٣٤ - النحل: ١٨].

إن اللهَ هُوَ خَالقُ هَذَا الكَوْن، ومُدبرُ أمره، والمسَـيْطرُ عليه، وكَلمتُهُ نَافذَةٌ وَمشيئتُهُ مَـاضيَةٌ، والإنسَانُ العَالمُ الذى يَسْكُنُ الأَرضَ لَهُ جَزاءٌ عنْدَ الله بحسَب فعْـله، فَإنْ شكرَ اللهَ عَلَى نعَمائه زَادَهُ اللهُ خَـيْرًا؛ لأنَّ خزائنَ الله لاَ تَنفدُ وَمُلكَهُ لا يَضـيقُ بأحد، وَإذَا لَمْ يكنْ مِنَ الشَّاكرِيـنَ، فَسوْفَ يَقعُ بِهِ العَذَابُ، وَيكُونُ مِنَ المبَعدينَ عَنْ رَحمَةِ الله الرَّحيم.

الصِّراعُ بيْنَ الخَيْرِ والشَّرّ

أَمَرَ اللهُ مَلائكَتَهُ بالسُّجود لآدَمَ ﴿فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ۝٣٠ إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَىٰ أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ [الحجر: ٣٠، ٣١] وكَانَتْ هَذه بدايةَ الصِّراعِ، فَإبليسُ اللَّعينُ، الشَّيْطانُ الرَّجيمُ، عَصَى أَمْرَ رَبِّه، واسْتكبرَ أَنْ يسجُدَ لآدمَ كَمَا سَجَدَ الملائكةُ المقرَّبُونَ. وكَانَتْ تلكَ الوَاقعَةُ معصيةً كَبيرَةً لله الخالق البارئ، وكانتْ أولَ مَعْصية تَحدُثُ فِي الكوْن؛ لأنَّ كُلَّ شيْءٍ يُسبِّحُ بِحَمْد اللهِ ويقدِّسُهُ، وكُلَّ الموجُودَات تَعلمُ أَنَّ الذي خَلَقَهَا هُوَ اللهُ، فَهِيَ تَشكُرُهُ بالتَّسبيح والتَّهليلِ ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤]. ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [الرعد: ١٥].

ولَكنَّ إبليسَ وَحْدَهُ استكبرَ عَنْ طَاعة الله، فَقالَ اللهُ لَهُ: ﴿يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلاَّ تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ [الحجر: ٣٢] لماذا لَمْ تَسجُدْ لآدمَ، لقدْ أَمرْتُكَ بالسُّجود، وأَنتَ تَعيشُ في مُلكي وتحتَ مَشيئَتي، وأَنَا الذي خَلَقْتُكَ، وكلُّ شأْنكَ بيَدِي وحْدِي. قَالَ إبليسُ: ﴿لَمْ أَكُن لأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر: ٣٣] هكَذَا، استكبارٌ واستعلاءٌ، وحَسَدٌ، يقولُ إبليسُ: أنَا خَيْرٌ منْ آدمَ، فقدْ خَلَقتَني منْ نَارٍ وخَلَقتَهُ منْ طينٍ، وَالنَّارُ في اعتقَاد إبليسَ أَفضَلُ منَ الطِّينِ.

ولَكنْ . . من الَّذي يُقدِّرُ الأَفْضَليَّةَ ويَقرِّرُهَا؟

لا شَكَ أَنَّ الذي يُقَدِّرُ الأفضليةَ هُو اللهُ الخالقُ.

ومَن الَّذي خَلق إبليسَ؟

إنهُ اللهُ عَزَّ وجَلَّ . . خَلقَهُ منْ نَار السَّمُوم، وَالأَفْضَليَّةُ تكُونُ للمَلائكَة الذينَ خَلَقَهُمُ اللهُ منْ نُور، ومَعَ ذَلكَ لَمْ يَسْتكبرُوا، وأَطَاعُوا أَمرَ ربهِمْ وسَجَدُوا لآدمَ مُستَسْلمينَ لمشيئة الله بتكريمِ ذَلكَ المخلوقِ منْ طينٍ.

وَلكنَّ إبليسَ الَّذى خُلقَ منْ نَار تمرَّدَ وتكبَّـر حقْـدًا وحَسَدًا وإيقَـاعًا للشَّرِّ فى الكون الَّذى لَمْ يَكُنْ قَدَ عرفَ للشَّرِّ طريقًا.

وَلذَلكَ عندَمَا نَجدُ إنسَانًا يتَّصفَ بالكبْـر أوْ بالحقْد والحسَد أَوْ يسعَى فى طَريق الشَّـرِّ، نَقـولُ عنهُ أنهُ شَـيْطانٌ؛ لأنَهُ أصبَحَ واحـدًا منْ جُنُود إبليسَ، يَتـمَنَّى زَوالَ النِّعْمَـة عَن الآخَـرينَ، وتلكَ هىَ نَزعَةُ الشَّـرِّ الَّتى تهْلكُ النفُـوسَ، وتدمِّرُ العـلاَقَات الطَّيِّـبَةَ. وتَهـدمُ الصِّفَات الحَسَنَة فى الإنسَان.

هَلْ إبليسُ منَ الملائكَة؟

هَذَا سؤالٌ مُهـمٌّ يَقفُ أَمَامَهُ الكثيـرُ منَ النَّاس، هَلْ كَانَ إبليسُ منَ الملائكَة؟؛ لأنهُ كَانَ معَهُمْ يومَ خَلقَ اللهُ آدمَ عليه السَّلامُ.

وَنَقُولُ: إنَّ مخْلوقَات الله بَعدَ السَّموات وَالأَرْض ثَلاثَةٌ:

أَولهُمُ الملاَئكَةُ، خَلقَـهُمُ اللهُ منْ نُور، وَأَسْكَنهُـمُ السَّمَـاءَ، وَهُمْ لاَ يأْكلونَ ولاَ يشْربُونَ، ويعْبدونَ اللهَ، وَلاَ يَعصُونَهُ ويفْعَلُونَ مَا يؤْمَرُونَ.

وَثانيهُمُ، الشَّيطَانُ، إبليسُ اللَّعـينُ، وقَدْ خَلقَهُ اللهُ منْ نار، وأَسكَنَهُ الأَرضَ فى أَطرافهَـا وَالأَمَاكنَ الخربَةَ والمهْـجورةَ منهَا، مـثْلَ دورات الميَاه الَّتي يَجبُ أَنْ نستَعيذَ بالله منَ الخُبُث وَالخبائث، عندَ دُخولهَا، وهوَ يأْكُلُ ويشْرَبُ ويتنَاسَلُ.

وَثالثهُمُ، الإنسَـانُ، خَلَقهُ اللهُ منْ طين، وكَرَّمهُ حَيْـثُ نَفخَ فيه منْ رُوحه، وَفضَّلهُ علَى كَثير ممنْ خلَقَ، وَأَسْجَدَ لهُ الملائكَةَ، وجعَلَ مَسكَنَهُ الأَرْضَ، حَيْثُ يأكلَ ويشْـرَبُ ويتزاوَجُ، لكَىْ يَستمرَّ نَسلُـهُ لعمَارة الكَوْن ورُقىِّ الحَياة.

وكَانَ اللهُ قَدْ بدأَ بخلْق الملاَئكَة، ثُمَّ الشَّـيطَان، فاندَمجَ الشَّيطَانُ مَعَ الملائكَة، وعَـاشَ كَأَنَّه وَاحـدٌ منْهَمْ، يُقَلِّدُهُمْ فى عَـبادَتهم ويفْـعَلُ كَمَـا يَفعَلُونَ، وهُوَ لَمْ يقْتنعْ بعَـمَلهمَ وعبَادتهمْ بعقْله، وإنما كَـانَ عَقْلهُ وقَلْبهُ يمتَـلئُ بالحقْد عَـلَى الملائكَة، ولاَ يستطيعُ أَنْ يُفْـصحَ عَنْ ذَلكَ، ونُسبَ





إليهمْ؛ لأنهُ عَاشَ مَعهم أمدًا طويلاً لاَ يَعلمهُ إلاَّ اللهُ سُبحانَهُ، فدخلَ فى زُمرَةِ الملاَئكَةِ أثناءَ خطَابِ الله لَهُمْ، وأمْرِه إياهُمْ بالسُّجود لآدمَ، وفى ذَلكَ يَقولُ الحقُّ سبحَانَهُ وتعَالَى: ﴿ **وإذْ قُلنَا للملائكة اسْجُدُوا لآدم فسجدُوا إلاَّ إبْليس كَانَ من الْجنّ ففسق عن أمْر ربه** ﴾ [الكهف: ٥٠]؛ لأنَّ نفسهَ فُطِرتْ عَلى الشرِّ والكراهيَةِ والحقد والحسَد؛ ولأنهُ ظنَّ أنَّ النار أفضلُ منَ الطِّين ﴿ **قال ما منعك ألاَّ تسْجُد إذْ أمرْتُك قال أنا خيْرٌ مّنْهُ خلقْتني من نَّارٍ وخلقْتهُ من طين** ﴾ [الأعراف: ١٢] ؛ولذَلكَ يَجبُ عَلَى المسْلِم أنْ يَتجنَّبَ هَذه الأخْلاقَ الذميمةَ منَ التَّكبرِ والحِقدِ والحسَدِ، حتَّى لاَ يكونَ منْ أعوَانِ إبليسَ.

إبليسُ يُطرَدُ منَ الجنَّةِ

الجنَّةُ اسمٌ جَميلٌ؛ لأنهَا مكَانٌ يَشعرُ الإنسَانُ فيه بالسَّعادَة والهَناءة والنَّعيم والسُّرور، خَلَقهَا اللهُ دارًا للنَّعيم الدَّائم الَّذى لاَ يَنْقَطعُ والمسرَّة المستمرَّة الَّتى لاَ تزُولُ. والإنسَانُ فيهَا يَتمتعُ بالرَّاحَة والخُلود، وهى فى مَكان يَعلَمهُ اللهُ سُبحَانَهُ وتعَالَى، فيهَا الفَواكهُ الطيِّبةُ، واللحومُ اللَّذيذةُ، ولحمُ الطَّير الَّذى تَشْتهيه النَّفْسُ، والعَسَلُ المصَفَّى، واللَّبنُ الَّذى لَمْ يتغيَّرْ طعمُهُ، وكُلُّ مَا يشتَهيه الإنسَانُ منْ مَأكلٍ ومَشرَبٍ ومَلبسٍ ومسْكَنٍ، وسعَادة معَ الحور العينِ، أى الزوجَات اللاَّئى بَلَغْنَ غايةَ الحسْنِ والجمَالِ.

وكَانَ إبليسُ معَ الملائكَة فى هَذه الجنَة، فَلمَّا عَصَى أمرَ ربِّه وتمَرَّدَ عَلَى خَالقه، طَرَدَهُ اللهُ منَ الجنَّة، فزاد إبليسُ فى العنَاد فقَالَ لربِّه:

مَادُمتَ قَدْ فضَّلتَ آدمَ عَلَىَّ، وأسْكنتَهُ جَنَّتكَ وطَردْتَنى منهَا بسببه، فَسوفَ أقعُدُ لَهُ عَلَى كُلِّ طريق، وأُغْويه بكُلِّ طريقَة، وأَصُدُّهُ عن عبَادَتكَ، وأزيِّنُ لَهُ اللَّهوَ واللَّعبَ، وأقذفُ بينَ أبنائه بالشَّرِّ منْ حقد وحَسدَ وتكبُّر بغير حَقٍّ، حتَّى يَنَالُوا اللَّعنةَ الَّتى كُتبتْ عَلَىَّ.

قَالَ اللهُ: ﴿ **فاخْرُجْ منْهَا فإنَّك رجيمٌ (٣٤) وإنَّ عليْك اللّعْنة إلىٰ يوْم الدّين** ﴾ [الحجر: ٣٤، ٣٥] وملعُونٌ مَنْ يكُونُ مَعكَ عَلَى طريقِ الغوَاية

والشَّرِّ والإلحاد، هُوَ مثلكَ، لَهُ مثْلُ مَالكَ مِنْ الخزْى فى الدُّنْيَا والخسْران فى الآخرَة، جَزاؤكُمْ نارُ جَهنَّمَ التى وَقُودُهَا النَّاسُ وَالحجَارةُ، أَمَّا الجنةُ فهِىَ مُحرَّمَةٌ عَلَيْكَ وَعَلَى الَّذينَ يتبعُونَكَ منْ خَلْقى.

قَالَ إبليسُ: مَا دُمتَ قَدْ طَردتَنى منْ جَنتكَ وحَرمتَنى منْ رَحمتكَ، فَأَعْطِنى شَيْئًا يُميِّزُنى وَحْدى، لاَ يُشَارِكُنى فيه إلاَّ مَنْ يتناسَلُ مِنْ ذرِّيتى..

قَالَ اللهُ: مَا هُوَ ذَلكَ الشَّىْءُ الَّذى تَطمَعُ فيه أَيُّها الرَّجيمُ.

قَالَ إبْليسُ: أَن تَمدَّ فى عُمُرِى وتُطيلَ أَجَلِى، فَلاَ أَمُوتُ إلاَّ يَومَ القيامَة.. ﴿ **قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ** ﴾ [الحجر: ٣٦] قَالَ اللهُ: ﴿ **فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ (٣٧) إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ** ﴾ [الحجر: ٣٧ - ٣٨].

وأَجَابَ اللهُ طَلَبَ إبليسَ وَوعَدَهُ أَنْ يُبْقيَهُ حيًّا إلَى أَنْ تقُومَ السَّاعة، وقَدْ حَذَّرنَا اللهُ سُبحَانَهُ وتعَالَى منْهُ حَتَّى لاَ نقعَ فى شِبَاك غَوايته، فقَالَ عَزَّ منْ قَائلٍ: ﴿ **إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ** ﴾ [فاطر: ٦].

آدَمُ وحَوَّاءُ.. فِي الجَنَّة

أَسكنَ اللهُ آدمَ الجنَّةَ، وأَرادَ أَنْ يخفِّفَ عَنْهُ وحْدتَهُ، وأَنْ يُزيلَ وَحشتهُ ويُؤنسَهُ فى جَنَّته، فَانتزعَ ضلعًا منْ أَضْلاعه، وَخلَقَ منْهُ حَوَّاءَ، وكَانَ آدمُ نَائمًا، فَاستيقَظَ منْ نومه فوجَدَ بجوَاره مخلُوقَةً منْ جنسه، وَأخبرَهُ ربُّه بأَنَّ تلكَ هىَ رَفيقَةُ حَياته الَّتى ستَصْحَبُهُ طُولَ عُمره.

خرَّ آدمُ سَاجدًا، شكرًا لله عَلَى هَذه النِّعمة، وَهَكَذَا نَتأَمَّلُ فَنجدُ آدمَ قَدْ خَلقَهُ اللهُ منْ حَمأ مَسنُون منْ غَير أَب وَلاَ أُمٍّ، ونجدُ حَوَّاءَ قَدْ خُلقَتْ منْ ضلعِ آدمَ، وكأنهُ أبوهَا، وَقَدْ خُلقَتْ مِنْ غَير أُمٍّ؛ لأنَّ اللهَ قَادرٌ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ، وَهُوَ وَحْدَهُ الخالقُ، ويضعُ أَمامَنَا آيات خَلقه وَقدْرته.

قَالَ اللهُ لآدمَ وحَـوَّاءَ: اسْكُنَا هَذه الجنَّة وَكُـلا منَها رَغَدًا مِـنْ حَيْثُ شئْتُمَا، إلاَّ شَجرةً واحدَةً حددهَا اللهُ، وَقَالَ لَهما: ﴿**ولا تقْربا هذه الشَّجرة فتكُونا من الظَّالمين**﴾ [البقرة: ٣٥]

إنَّ اللهَ يَختبـرُ إيمَانَ عباده، وَيضَـعُهمْ في مَوقف امْتـحَان وَابتلاَء، وَهوَ سُبحـانَهُ عَالَمٌ بما سَـيكُونُ، وَلكنهُ يريدُ أَنْ يظهرَ لكُلِّ إنسَانٍ نتـيجَةَ فعله وعَاقبته. ولذَلكَ يقُولُ سبـحَانَهُ وتعَالَى ﴿**ولَقدْ عهدْنا إلىٰ آدم من قبْلُ فنسي ولمْ نجدْ لهُ عزْمًا**﴾ [طه: ١١٥]. لقـد انتهـزَ الشَّـيطَانُ الفرْصَـةَ السَّانحة، فأَخَذَ يُوسوسُ لآدمَ وحَوَّاءَ يغويهـمَا ويعريهمَا ويزيِّنُ لهمَا هَذه الشَّـجَـرةَ الممنوعَـةَ، وَيبررُ منـعَ الله لهُمَـا مِـنْ أَكـلهَـا بأَنَّ الأَكَل منهـا سَيجْعَلُهمَـا مَلكين، أَوْ سيَكتبُ لهُمَا الخلُودَ ﴿**فوسْوس لهُما الشَّيْطانُ ليُبْدي لهُما ما وُوري عنْهُما من سوْءاتهما وقال ما نهاكُما ربُّكُما عنْ هذه الشَّجرة إلاَّ أن تكُونا ملكيْن أوْ تكُونا من الْخالدين**﴾ [الأعراف: ٢٠]، وأَفلَحَ اللـعينُ في إقناعهمَا بمعْصية أمر الله﴿**بدتْ لهُما سوْءاتُهُما وطفقا يخْصفان عليْهما من ورق الْجنَّة وناداهُما ربُّهُما ألمْ أنْهكُما عن تلْكُما الشَّجرة وأقُل لَّكُما إنَّ الشَّيْطان لكُما عدُوٌّ مُّبينٌ**﴾ [الأعراف: ٢٢]. كَـانَ عَليهـمَا سِتـرٌ منَ الله تعالى فكشَـفَاهُ بالمعْصيـة، وَاضْطُرَّا أَنْ يصنعَا لأنفسهمَـا ستراً فراحَا يجـمعَانِ الوَرقَ من الأَشجَار ليستُرا به ما بَدا لهُمَا منْ عَورات الجسَد.

وكَأَن اللهَ سُبحانَهُ يُرينَا أنَ المعصـيةَ تكشفُ العَورةَ، وتفْضَحُ المستُورَ ويكُونُ لهَا بعدَ ذلكَ عقابٌ أليمٌ، فماذَا كَانَ عقابُ آدمَ وحَواءَ؟

قَالَ اللهُ: ﴿**اهْبطا منْها جميعًا بعْضُكُمْ لبعْضٍ عدُوٌّ فإمَّا يأْتينَّكُم منّي هُدًى فمن اتَّبع هُداي فلا يضلُّ ولا يشْقىٰ (١٢٣) ومنْ أعْرض عن ذكْري فإنَّ لهُ معيشةً ضنكًا ونحْشُرُهُ يوْم الْقيامة أعْمىٰ**﴾ [طه: ١٢٣، ١٢٤]

وَهَبطَ آدمُ وحَوَّاءُ إلـى الأَرض، وَشعَرا بالنَّدم والحـزْن، لأنهُمَـا قَدْ فَارقَا الجنةَ بما فيهَا منْ خَير ونَعيم، وَجاءَا إلَى المكَابدَة والسَّعْي والتَّعب، وهُنَا يَظهَرُ المعـدنُ الحقيـقىُّ لكلِّ مخلوق، فَالشَّـيطانُ عَلَى الرَّغْم منْ أَنهُ



عَارفٌ بخطيئته ولكنَّهُ مستمرٌّ فى التمرُّد والعصْيان، أمَّا الإنسَانُ فَقدْ يذنبُ ولكنَّهُ يعودُ إلىٍ الله ويتوبُ مُعْترفًا بذنبه، وهَذا مَا كَانَ منْ آدمَ وحَواءَ، إذْ رَفَعَا أكفَّ الضَّـراعَة إلَى الله وَأعلنَا النَدمَ، قَالاَ ﴿**ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين**﴾.

وتقبلَ اللهُ آدمَ وحواءَ، وَقَـبلَ توبتَهُمَا؛ لأنَّهُ التَّـوابُ الرَّحيمُ، وَاسعُ المغفرةِ، يَقبلُ التَّوبةَ منْ عباده ويَعْفُو عَن السَّيئات وَيغفرُ للمذْنبينَ.

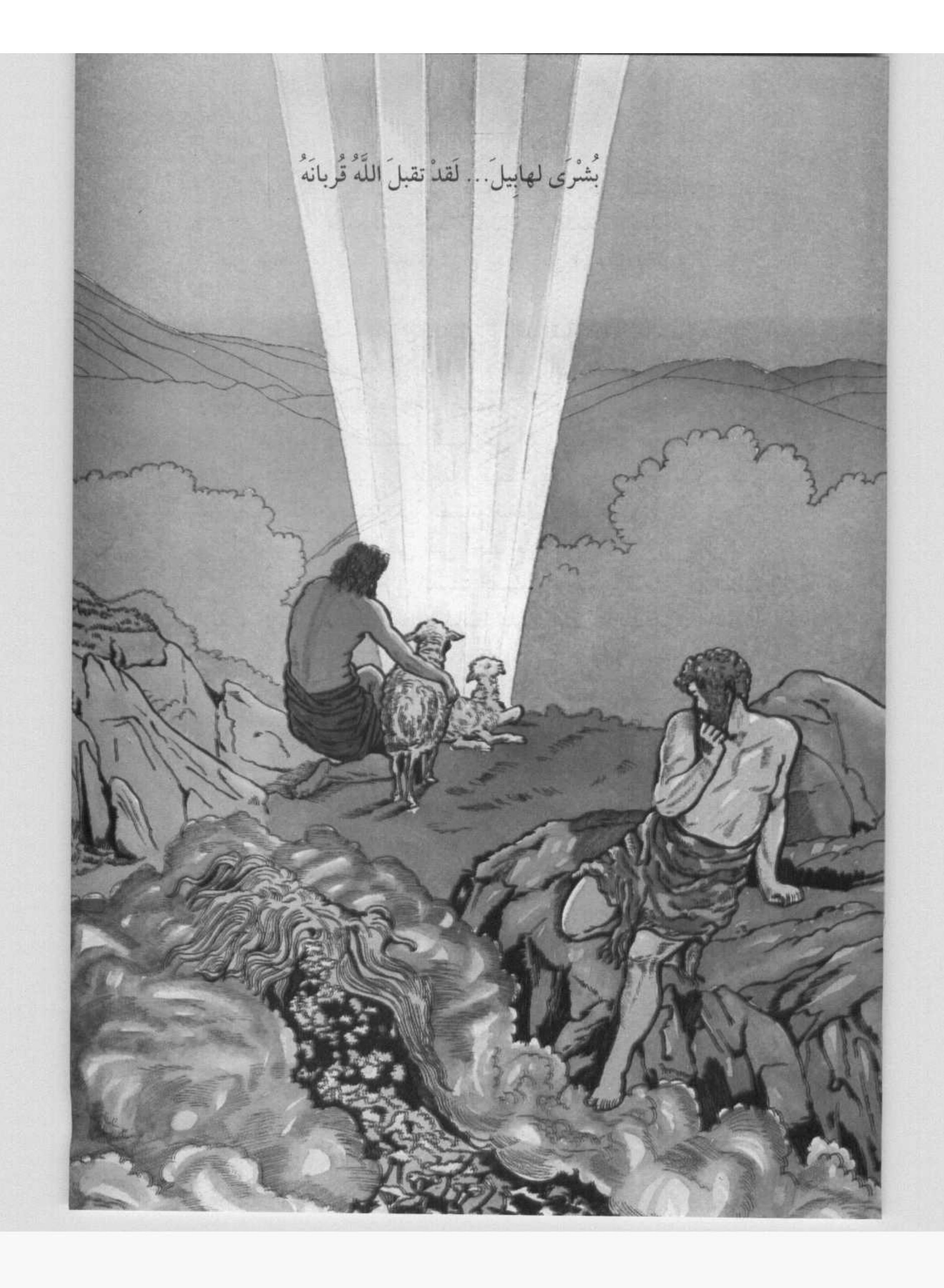
بداية التناسل

أمرَ اللهُ آدمَ أنْ يتزوَّجَ حَـوَّاءَ، وكَانَ زواجًا مُباركًـا، وحَملتْ حَواءُ وأنجبَتْ ولدًا وبنـتًا، ثمَّ حَملتْ مَـرَّةً أخْرَى، وأنجبتْ وَلدًا وبـنْتًا، وَهكذَا توَالَى الحَـملُ وَالولاَدةُ، وَفى كُلِّ مَـرةً تَلدُ تَوأمًـا ولدًا وبنتًـا، ولَمَّا كَـانَ المجتمعُ الإنسَـانيُّ لَيسَ فيه إلاَّ آدمُ وحوَّاءُ ومنْ تناسَلَ منهُمَـا، فَقدْ تلقَّى آدمُ التوجـيهَ الإلَهيَّ بأنْ يَـتزوجَ الذكرُ الأولُ منَ البـنت الثَّانيـة، والذَّكرُ الثَّـانى منَ البنْتَ الأولىَ، لأنهُ اعـتبـرَ أنَّ كُلَّ حَـملٍ يُشكِّلُ أخًـا وأختًـا شَقـيقَةً، ولاَ يَجوزُ أنَ يتـزوَّجَ الشَّقيقُ شَـقيقتَـهُ، هكَذَا مُنذُ بدَاية الخَلْق، وَشاءتْ إرادَةُ الله أنْ يتزوجَ هَابيلُ أُختَ قَابيلَ، وكانَتْ تَتمتَّعُ بجمَال أخَّاذ وحُسْنٍ رَائعٍ، فأرَادَ قَابيلُ أنْ يَستَبقيَهَـا لنفسه ويتزوَّجهَا هُوَ، فقَالَ لَهُ أبوهُ آدمُ:

- هَذَا لاَ يَجوزُ، وَهذَا أمرُ الله وتَشريعُهُ، وَلاَ يَجُوزُ لَكَ أنْ تُخالفَ مَا شرعَهُ اللهُ.

وَلكنَّ قَـابيلَ تمردَ علَى أمـر ربَه وتوجيـه أبيـه، وَلَمْ يَقبلْ منْ أبيـه نُصحًا، لقـدْ تملَّكهُ الشَّيطانُ، وجعَلَ عنادهُ أَكـبَرَ منَ السَّماع للنَّصـيحَة، وَأعْمى الشَّيطانُ عَينَهُ، وأغلقَ عقْلَهُ، فأصرَّ علَى مَوقفه.

وأرادَ آدمُ أنْ يُخرجَ ولديْه منْ ذَلكَ المأزق، فـقَالَ لهُمَـا؛ عُودَا إلَى مشيئَة الله وَاختياره، وَاجعلاَهُ هُوَ الحكَمُ بينكُمَا، وليُقدِّمْ كُلٌّ منكُمَا قُربَانًا لله عَزَّ وجَلَّ، فمنْ يتـقَبلُ اللهُ قُربانَهُ يكنْ راضيًا عَـنْهُ، وَفى الوَقْت نَفْسه يَكونُ مسمُوحًا لَهُ أن يتزوجَ منْ هذه البنت الجميلَة.


بُشْرَى لهابِيلَ... لَقَدْ تقبلَ اللَّهُ قُربانَهُ

كَانَ هَـابيلُ يرعَى الغَنمَ وقَابيلُ يزرع الأرضَ قَـمْحًـا، فقـام هابيل وَاختَـارَ أَحسنَ ما عنْدهُ وأجود مـا لديْه، وقدَّمهُ قـربَانًا لله عزَّ وجلَّ لكى يرضَى عَنْهُ، أمَّا قَابيلُ فَجاءَ بِشيْءٍ رَديءٍ مِنْ زرعِهِ، وقدَّمهُ قرْبانًا إِلَى الله غَيرَ مُبال بما تَكُونُ النَّتيجَةُ.

وكَانت النَّتيجَةُ بشْرَى لهَابيلَ. . لَقدْ تقبَّلَ اللهُ قربَانَهُ، وهُنَا قَالَ آدمُ:

- لَقدْ فصَلَ اللهُ فى النِّزاع، وَرَضِىَ أنْ يـتزَّوجَ هَابيلُ أُختَ قَابيلَ، وَلا بُدَّ منَ الانقياد لأمرِ الله ورضَاه.

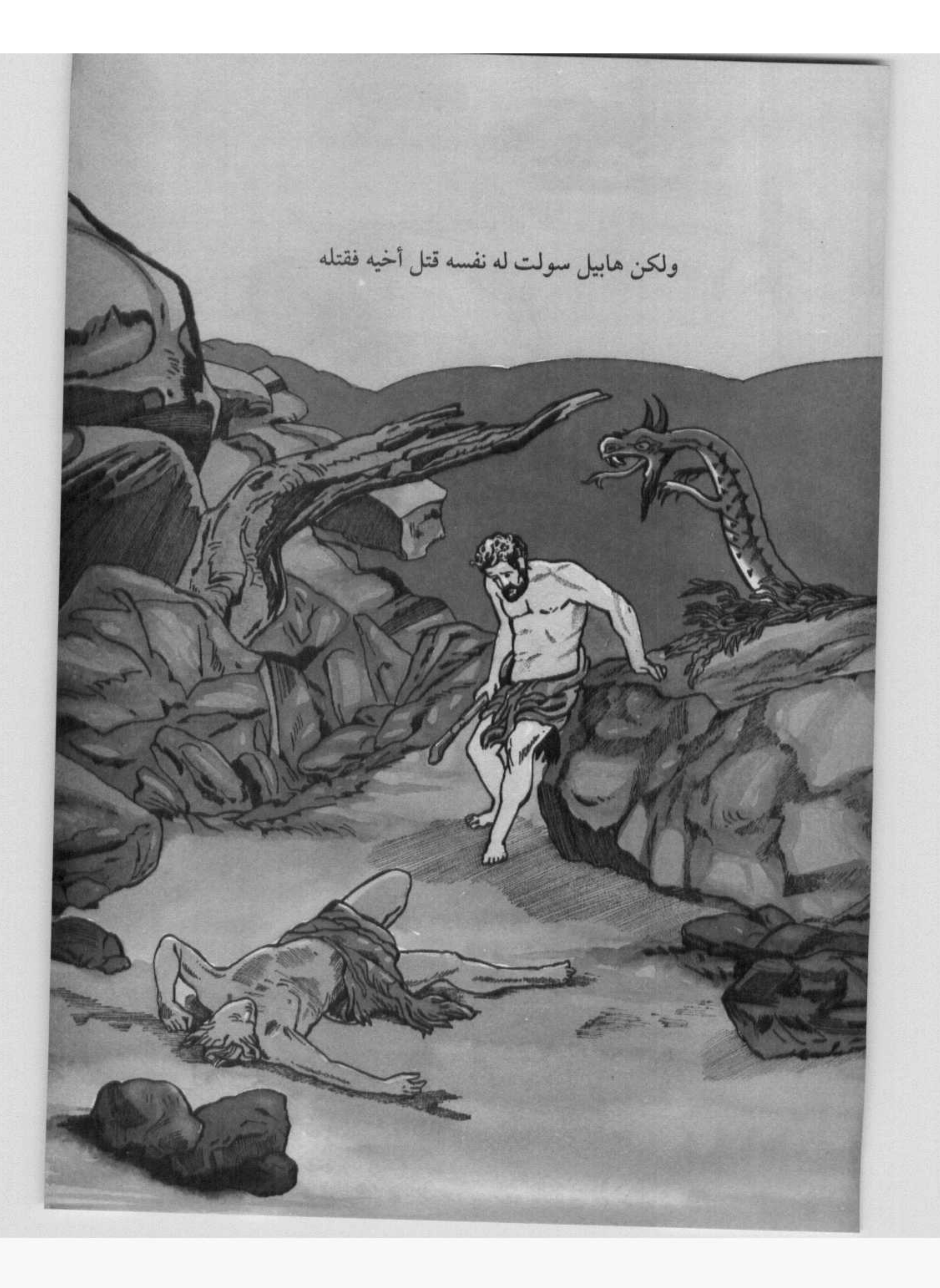
لقدْ سبقَ أنَ استَكبَـرَ إبليسُ عَنْ أمر ربِّه، وهَا هو ذا واحدٌ منَ أبناء آدم يَتبعُ إبليسَ وَيسيرُ فِى طَرِيقه، فيمْـلأُ قَلبَهُ الحقْدُ والحسدُ، ويُصمُّ أذنَيه عَن نُصْحِ أبيه، ويَستمرُّ فى عصْيانه فيقُولُ لأخيه هَابيلَ:

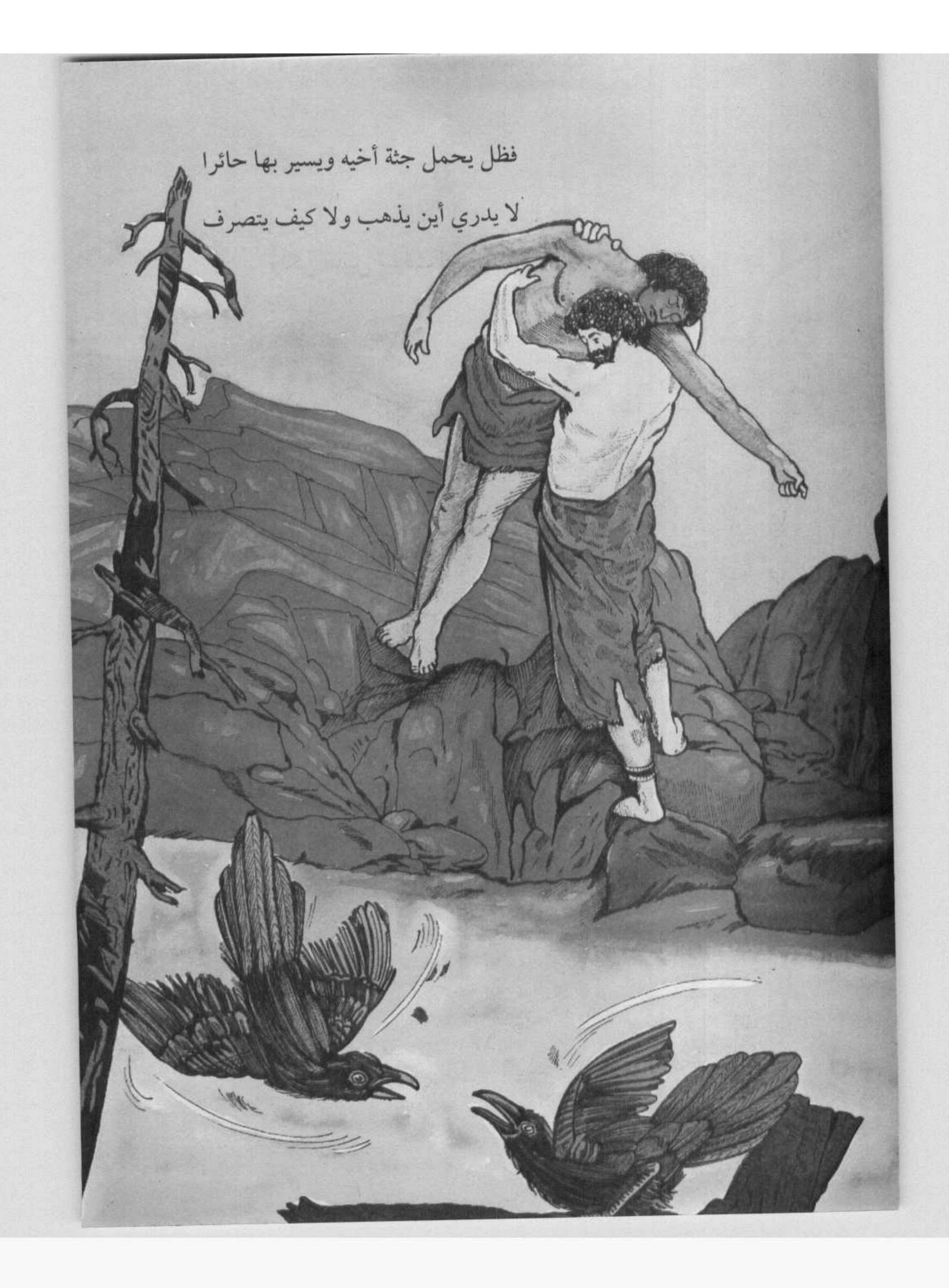
- إِذَا تزَوَّجتَ بأختِى الَّتى أحبُّهَا فلأَقْتلَنَّكَ.

ولكن هابيـلَ الرجُلَ الطيبَ الصَّـالحَ، لَـمْ يزدْ عَلَى أَنْ قَـالَ: ﴿لئن بسطتَ إليَّ يدكَ لتقتُلني ما أنا بباسطٍ يديَ إليكَ لأقْتُلكَ إنِّي أخافُ اللهَ ربَّ العَالمين﴾ [المائدة: ٢٨]

ولكن قابيل سَولتْ لهُ نفسُهُ قتلَ أخيه فقتَلَهُ وكَانَتْ هَذه أولَ جَريمة تقعُ عَلى سَطْحِ الأرْضِ، وأولَ دَم يُسفَكُ عَلَى وَجهِهَا. ولذَلِكَ لَمْ يعرفْ قَابيلُ مَاذَا يَصنَعُ بجُثة أخيـه، فكَانَ يَحملهَا ويطُوفُ بهَا، يُرِيدَ أَنْ يبعدَهَا عَن عَينْ أبيه وعَينِ أمِّـه، وعَين أخته، فظلَّ يحملُها ويَسـيرُ بهَا حَائرًا لاَ يدْرى أينَ يذهَبُ ولا كَيفَ يتصرَّفُ.

وَجاءَ الغرَابُ ليعلِّمَهُ كَيـفَ يُوارى سَوأةَ أخيه، وهَذا منْ رَحمَة الله بالعبَـاد؛ لأنَّ الإنسَانَ عندمَا يَموتُ وتَصْـعَدُ روحُهُ إِلَى بارئهَا يَكُـونُ جثةً هَامَدةً، تتغيرُ وتتعَـفَّنُ وتَظهرُ لهَا روائح كَريهةٌ، فكَانَ منْ لُطف الله بأبنَاء آدمَ أَنْ يُعلِّمَهُمْ كَيفَ يَدْفنُونَ جُثثَ مَـوْتَاهُمْ فى التُّراب، حَـتَّى لاَ تتأذَّى أَعينُ الأَحيَاء بالنَّظر إِلَى الأمْـوات، وَحتَّى لاَ يكونَ تركَ الجثَث فى الهَواء سَببًـا فى انْتـشَار الأَوبئة، والأمَـراضِ الفتَّاكة، التَّى تَنتـقلُ منْ إنسانٍ إِلَى آخرَ عَنْ طريقِ الميكرُوبات الَّتى تكثُرُ فى العفَنِ والأوسَاخِ.


ولكن هابيل سولت له نفسه قتل أخيه فقتله


فظل يحمل جثة أخيه ويسير بها حائرا
لا يدري أين يذهب ولا كيف يتصرف

وجاء الغراب ليعلمه

كيف يواري سوأه أخيه



وَلذلكَ كَانَ فَضلُ الله عَلَى البشريَة عظيما، فأرسلَ اللهُ غُرابَين أسودَين، وَقفَا بحَيْثُ يراهُمَا قَابيلُ، وَاقتَتلا وانتصرَ أَحدُهُمَا علىَ الآخرِ، وقتلَهُ، ولكنَّهُ لمْ يقعْ في الحيْرة التى وَقعَ فيهَا قَابيلُ الَّذى يحَملُ جُثةَ أَخيه لاَ يدْرى مَاذَا يفعَلُ بهَا، وكَانَ أمامَ قَابيلَ مشَهدٌ عجيبٌ، ذلكَ أَنَّ الغرابَ المنتصرَ تقدَّمَ فحملَ الغرابَ القتيلَ بمنقاره، بَعدَ أنَ كَانَ قَدْ حَفَرَ فى الأرض بأَظافره حُفرةً وضَعَ فيهَا أَخَاهُ الميتَ، وبدأ يهيلُ عَليه التُّرابَ بَأظفاره، وَلقَدْ كَانَ هَذَا الفعلُ منَ الغرَاب تَعليمًا للإنسَانية كُلِّهَا، ليسَ تعليماً لقابيلَ وحْدَهُ، ورأَى قَابيلُ الغُرابَ وهُو يدفنُ ضَحيَّتهُ. . . فقالَ: ﴿**يا وَيْلَتىٰ أَعجزْتُ أَنْ أَكُونَ مثْل هذَا الْغُرَاب فأُوارِيَ سوْءَةَ أَخي**﴾ [المائدة: ٣١]

وَشعرَ قَابيلُ بالنَّدم، ولكنْ بعْدَ فَوات الأوان، فَانكمَشَ عَلَى نفسه حَتَّى مَاتَ، وانتصرَ الشيطاَنُ فى أول مَعركَة بينَهُ وبينَ أبنَاء آدمَ، وَحزنَ آدمُ عَلَى وَلده الصَّالح، ولكنَّهُ كَانَ منَ المؤمنينَ بمشيئة الله عَزَّ وجلَّ، وأَنَّ كُلَّ إنسَان لَهُ أجلٌ معَيَّنٌ وَوقتٌ معْلومٌ ﴿**فَإِذَا جاءَ أَجلُهُمْ لا يسْتأْخرُونَ ساعةً ولا يسْتَقْدمُونَ**﴾ [الأعراف: ٣٤].

وَاستمرَّت الحَياةُ، وَامتلأَت الأَرضُ منْ ذرية آدمَ، حَتَّى وصَلَ عَددهُمْ أُلوفَ الملايين، مُوزعينَ فى كَلِّ الجهَات، انْحدَروا منْ صُلبِ رجَلٍ وَاحدٍ خَلقهُ اللهُ مُنذُ ملايين السِّنينَ. . هُوَ آدمُ. . أبوُ البشَرِ.

* * *